الفصل الرابع والعشرون

هنرى الثامن وتوماس مور

١٥٢٩ — ٣٥

١ — برلمان الإصلاح الدينى

فى المجلس النيابى الذى اجتمع فى وستمنستر يوم ٣ نوفمبر سنة ١٥٢٩ اتفقت الجماعتان الحاكمتان — النبلاء فى المجلس ، والتجار فى مجلس العموم على انتهاج ثلاثة ضروب من السياسة : تخفيض ثروة رجال الكنيسة وإضعاف سلطانهم ، والمحافظة على التجارة مع الفلاندرز وتأييد الملك فى حملته للحصول على وريث ذكر . ولم ينطو هذا الاتفاق على الرضا عن آن بولين التى كانت تواجه باستنكار عام باعتبارها مغامرة ، كما أنه لم يمنع وجود تعاطف عام مع كاترين[1] . أما الطبقات الدنيا ، وهى عاجزة من الناحية السياسية ، فكانت حتى ذلك الوقت لا توافق على الطلاق ، ووقفت المقاطعات الشمالية ، وهى كاثوليكية شديدة التحمس ، مع البابا[2] فى إخلاص . وعمل هنرى على تهدئة هذه المعارضة مؤقتا بأن ظل محافظا فى كل شىء اللهم إلا حق البابوات فى الهيمنة على الكنيسة الإنجليزية .

وكانت الروح القومية ، وهى فى إنجلترا أقوى منها فى ألمانيا ، تقف فى تلك المسألة إلى جانب الملك ، وعلى الرغم من فزع رجال الدين من تصور أن يكون هنرى سيداً لهم فإنهم لم ينفروا من الاستقلال عن بابوية لا شبهة فى خضوعها لسلطة أجنبية .

ونشر سيمون فش حوالى عام ١٥١٨ كتيبا من ست صفحات ، قرأه هنرى ، دون أن يبدى احتجاجا فيما نعلم ، وقرأه كثيرون بابتهاج

صادق . وأطلق عليه اسم « ابتهال الشحاذين » وطالب الملك بمصادرة ثروة الكنيسة الإنجليزية كلها أو جانب منها :

« فى العهود الخوالى لأسلافك النبلاء (هناك) تسلل فى دهاء إلى مملكتك . . شحاذون وأفاقون مقدسون ومتبطلون . . أساقفة ورؤساء أديار وشمامسة ورؤساء شمامسة ومعاونو أساقفة وقساوسة ورهبان ورجال دين وكهنة رهبان وبائعو صكوك غفران ومحضرون . ومن يستطيع أن يحصى هذا الضرب المتبطل المخرب الذى (طرح كل عمل جانبا) ألح فى السؤال إلحاحاً شديداً إلى حد أنهم حصلوا فى أيديهم على أكثر من ثلث مملكتك بأسرها ؟ إن أعظم المقاطعات وأجمل الدور والأراضى والأقاليم ملك لهم . وكان لهم إلى جانب هذا عشر محصول الغلة والمراعى والمروج والكلأ والصوف والمهور والعجول والحملان والخنازير والأوز والدجاج . . . أى نعم وإنهم ليتطلعون فى حرص شديد إلى أرباحهم إلى حد أن الزوجات المسكينات لا بد وأن يكن مطالبات بأن يحبين عشر كل بيضة وإلا فإن الزوجة لن تحصل على حقوقها فى عيد الفصح . . . ومن التى تشرع فى العمل مقابل ثلاثة بنسات فى اليوم إذا كان فى وسعها أن تحصل على عشرين بنسا على الأقل فى اليوم لقاء نومها ساعة مع أخ أو راهب أو قس(٣) ؟

ولعل النبلاء والتجار قد رأوا أن هناك شيئاً من المبالغة فى هذا الاتهام ، بيد أنهم اعتقدوا أنه يؤدى إلى نتيجة سارة — وهى إضفاء الصبغة العلمانية على أملاك الكنيسة ؛ وكتب السفير الفرنسى جان دى بلاى « إن هؤلاء السادة يلتوون ؛ ؛ ؛ اتهام الكنيسة والتهام كل أموالها ، ولا أكاد أجد نفسى فى حاجة إلى تسجيل هذا بالشفرة ، لأنهم يجهرون به صراحة ، وأتوقع ألا يحصل القساوسة أبدا على خاتم الدولة — أى لن يكونوا على رأس الحكومة أبدا ، مرة أخرى ، وأنهم سوف يتعرضون فى هذا المجلس

النيابى لمفازع هائلة(٤)» . وكان ولزى قد منع هذا الهجوم على أملاك الكنيسة ، بيد أن سقوطه ترك رجال الدين بلاحول لهم ولا طول ، اللهم إلا ما يتمتعون به من إيمان الناس ، وهو إيمان كان آخذاً فى التقلص ، ولعل السلطة البابوية التى كانت قمينة بأن تحميهم بهيبتها أو تحريمها أو بحلفائها كانت وقتذاك الهدف الرئيسى لسخط الملك وكرة القدم التى تتقاذفها السياسة الإمبراطورية ، وكان العرف يقتضى موافقة المجمع الاكليروسى لرؤساء أساقفة كنتربرى ويورك على كل تشريع يمس الكنيسة إنجلترا أو تأييده . فهل كان فى وسع هذا المجمع تخفيف سورة غضب الملك وكبح جماح الحركة المناهضة لرجال الدين فى المجلس النيابى ؟

وافتتح المعركة مجلس العموم . إذ وجه خطابا إلى الملك يقر فيه عقيدة المحافظين ، وإن انتقد رجال الدين بشدة . وهاجم « قرار الاتهام » المشهور المجمع الاكليروسى واتهمه بأنه سن القوانين ، دون الحصول على موافقة الملك أو المجلس النيابى ، التى تحدد حرية العلمانيين تحديداً خطيراً ، وتعرضهم لتعزير شديد ، وغرامات باهظة ، واتهم رجال الاكليروس بأنهم أعطوا صدقات لـ « جموع من الأحداث ، قالوا إنهم أبناء إخوتهم » على الرغم مما يتمتع به مثل هؤلاء المستفيدين من شباب أو جهل ، واتهم المحاكم الأسقفية بأنها استغلت فى جشع حقها فى فرض رسوم وغرامات ، وهذه المحاكم بأنها قبضت على أشخاص وسجنتهم دون أن تبين التهم الموجهة إليهم ، وأنها اتهمت العلمانيين وعاقبتهم عقابا شديداً لشبهة هرطقة طفيفة واختتمت الوثيقة بمطالبة الملك بإصلاح هذه العلل(٥)، ولا شك فى أن هنرى الذى كان على علم بأسرار تأليف هذا الخطاب قدم نقاطه الرئيسية إلى المجمع الاكليروسى وطلب منه الرد .

وأقر الأساقفة وجود بعض الظلم وعزوا هذا إلى أفراد ظهروا اتفاقاً ، وأكدوا تمسك محاكمهم بالعدالة ، وأنهم يتأسون بالملك الورع الذى زجر لوثر فى نبل عظيم ، لمساعدتهم على قمع الهرطقة ، ثم أخطأوا خطأ فظيعاً وأساءوا فهم المزاج الملكى فأضافوا كلمات كانت بمثابة إعلان للحرب .

ما دمنا نعلن ونتمسك بسلطتنا فى سن القوانين التى تستند إلى ما فى كتب الله المقدسة وما قررته الكنيسة المقدسة . . . فليس لنا أن نتخلى عن أعبائنا وواجباتنا ، ، التى أمرنا بها الله على وجه التأكيد ونتركها لرضاك السامى ، ومن ثم نلتمس من مراحمكم بكل خضوع . . . أن تحافظوا على هذه القوانين والشرائع وأن تدافعوا عنها مثلنا . . . وأن يعمل بتفويض من الرب إجلالا له تعالى على دعم الفضيلة والحفاظ على عقيدة المسيح(٦) »

وعلق موضوع النزاع . ولم يواجهه هنرى فى الحال . وكان أول ما اهتم به هو الحصول على موافقة المجلس النيابى على طلب عجيب ـ أن يعفى من سداد القروض التى قدمها له رعاياه(*) . واحتج أعضاء مجلس العموم ثم وافقوا ؛ وقدمت ثلاثة مشروعات أخرى بقوانين تستهدف كبح جماح ساطة رجال الاكليروس على الوصايا التى تم الإشهاد عليها وتقاضيهم رسوماً على الموتى واحتفاظهم بالصدقات المتعددة ، وحظيت هذه المشروعات بقوانين بموافقة أعضاء مجلس العموم ، وعارضها بشدة الأساقفة ورؤساء الأديار وأصحاب المقاعد فى مجلس اللوردات ، وقد عدلت ، ولكنها أصبحت فى جوهرها قوانين نافذة ، وتأجل انعقاد المجلس النيابى إلى يوم ١٧ ديسمبر .

وتلقى الملك إبان صيف عام ١٥٣٠ شيئا من التشجيع الغالى ، إذ اقترح توماس كرانمر ، أستاذ اللاهوت فى جامعة كمبردج ، على هنرى ، أن تبدى

(*) أى انخفاض قيمة العملة الآن يعنى الحكومات من الالتجاء إلى مثل هذه النصوصية الشريفة .

الجامعات الكبرى فى أوربا رأيها فى موضوع هو هل كان فى وسع البابا ان يسمح لرجل بالزواج من أرملة شقيقه . وأعقب هذا الاقتراح مباراة مرحة فى التنافس على الرشوة : ونثر وكلاء هنرى المال للتحريض على إصدار أحكام سلبية ، ولجأ وكلاء شارل إلى المال أو التهديد للحصول على ردود إيجابية(٧) ، وانقسمت ردود الجامعات الإيطالية ، ورفضت الجامعات اللوثرية تقديم أى رد مريح للمدافع عن العقيدة ، بيد أن جامعة باريس ، تعرضت لضغط من فرانسيس(٨) فقدمت الرد العزيز المنشود الذى كان يتلهف عليه . ووافقت جامعتا أكسفورد وكامبردج ، بعد أن تسلمتا رسائل صارمة من الحكومة ، على حق الملك فى الحصول على قرار بطلان زواجه .

وعندما شعر بدعم مركزه إلى هذا الحد ، أصدر عن طريق وكيله العام (ديسمبر سنة ١٥٣٠) إعلانا بأن الحكومة تعتزم رفع دعاوى ضد كل رجال الاكليروس الذين اعترفوا بسلطة ولزى قاصدا رسوليا ، وعلى أساس أنهم خالفوا قانون الولاء للتاج . وعندما عاد المجلس النيابى والمجلس الاكليروسى للانعقاد (١٦ يناير سنة ١٥٣١) أعلن وكلاء الملك وهم سعداء أن الدعاوى سوف تسحب إذا اعترفوا بأنهم مذنبون ودفعوا غرامة قدرها ١١٨,٠٠٠ جنيه (١١,٨٠٠,٠٠٠ دولار ؟)(٩) . فاحتجوا بأنهم لم يرغبوا قط فى أن يكون لولزى مثل هذا السلطان وأنهم لم يعترفوا به قاصدا رسوليا إلا لأن الملك قد فعل هذا بتقديم التماسه للنظر أمام محكمة ولزى وكامبيجيو . وكانوا على حق كامل بالطبع ، بيد أن هنرى كان فى حاجة ماسة إلى المال . ووافقوا ، وهم يولولون ، على سداد المبلغ من موارد أبرشياتهم . واستخف الطرب الملك فطالب وقتذاك بأن يعترف به رجال الاكليروس « حاميا للكنيسة ورجال الدين فى انجلترا والرئيس الأعلى الوحيد لهم » أى أن ولاءهم للبابا لا بد أن ينتهى وعرضوا اثنتى عشرة مصالحة وجربوا اثنتى عشرة عبارة مبهمة ، وكان هنرى قاسيا لا يرحم ، وأصر على أن يردوا بكلمة « نعم »

أو « لا » . وأخيراً (١٠ فبراير سنة ١٥٣١) عرض رئيس الأساقفة واهرام ، وكان وقتذاك فى الحادية والثمانين ، فى تبرم ، إقرار صيغة الملك وأضاف إليها عبارة فيها تحفظ « بقدر ما تسمح شريعة المسيح » ، وسكت المجلس الاكليروسى ، واعتبر السكوت رضا ، وأصبحت الصيغة قانونا . وهدأت ثائرة الملك ، فسمح عندئذ للأساقفة بمطاردة الهراطقة .

وتأجل اجتماع المجلس النيـــابى والمجلس الاكليروسى مرة أخرى (٣٠ مارس سنة ١٥٣١) : وفى يوليو ترك هنرى كاترين فى وندسور على ألا يراها أبدا مرة أخرى ؛ وسرعان ما نقلت بعد ذلك إلى امبتهل بينما أقامت الأميرة مارى فى رتشموند وطالب هنرى بالجواهر التى كانت قد ارتدتها كاترين بصفتها ملكة وأعطاها لآن بولين(١٠) واحتج شارل الخامس لدى كليمنت الذى وجه خطابا قصيرا للملك (٢٥ يناير سنة ١٥٣٢) يؤنبه فيه لاقترافه الزنا ، ويحضه على طرد آن والاحتفاظ بكاترين ملكة شرعية إلى أن يصدر قراراً فى الالتماس المقدم منه لإعلان بطلان الزواج . وتجاهل هنرى التأنيب واستمر فى غرامه . وكتب حوالى هذا الوقت إحدى رسائله الرقيقة لآن :

حبيبة قلبى ، أكتب لك هذا لأعرب عن الوحدة التى أعيش فيها هنا منذ فراقك ، لأنى أؤكد لك أنى أرى الوقت قد أصبح منذ رحيلك أطول مما تعودت أن أراه مدى أسبوعين كاملين ، وأعتقد أن رقتك وحرارة حبى هما السبب . . ولكنى أفكر الآن وأنا قادم إليك ، وآلامى قد خف نصفها ، فى أن يتحقق أملى فى أمسية خاصة بين أحضان حبيبتى التى سوف أركن قريبا إلى نهديها الجميلين وأقبلهما . كتبته يد من كان ولا يزال لك وسوف يظل معك على الدوام بإرادته .

وعندما انعقد المجلس النيابى والمجلس الاكليروسى مرة أخرى (١٥ يناير سنة ١٥٣٢) حصل هنرى من المجالس الأربعة جميعاً على تشريع آخر مناهض لرجال الاكليروس ينص على : أن رجال الدين دون درجة مساعد شماس ، يجب أن يحاكموا أمام المحاكم الدينية عند اتهامهم بالخيانة العظمى ، وأن الرسوم والغرامات التى تتقاضاها المحاكم الكنسية يجب أن تخفض ، وأن الرسوم الكنسية على الموتى ورسوم التثبت من صحة الوصايا يجب أن تخفض أو تلغى ، وأن موارد السنة الأولى لأسقف حديث التعيين يجب ألا تدفع بعد ذلك للبابا وأن تحويل الأموال الإنجليزية إلى روما من أجل محللات وصكوك غفران وخدمات بابوية أخرى يجب أن يتوقف ، وأرسلت إشارة ماكرة إلى المجلس البابوى بأن موارد السنة الأولى للأسقف حديث التعيين سوف ترد إلى البابا إذا أعلن بطلان الزواج بكاترين .

وفى هذا الوقت انحازت غالبية من الأساقفة إلى الرأى القائل بأنهم لن يفقدوا شيئا من السلطة أو الدخل إذا استقلت الكنيسة الإنجليزية عن روما . وفى مارس سنة ١٥٣٢ أعلن المجلس الاكليروسى استعداده للانفصال عن البابوية : « هلا تفضلتم يا صاحب السمو بوقف أعمال الاغتصاب الظالمة المذكورة . . . وإذا اتخذ البابا إجراء ضد هذه المملكة للحصول على موارد السنة الأولى للأساقفة حديثى التعيين . . . فلتتفضلوا سموكم بسن قانون من المجلس النيابى الحالى بسحب طاعة سموكم والشعب للكرسى البابوى فى روما(١٢) » .

وفى ١٥ مايو قدم المجلس الاكليروسى تعهداً للملك بتقديم كل تشريع تال له إلى لجنة ـ نصفها من العلمانيين والنصف الثانى من رجال الإكليروس ـ لها الحق فى الاعتراض على أى قوانين ترى أنها ضارة بالمملكة . وهكذا ولدت كنيسة إنجلترا فى هذا « الإصلاح النيابى » الأسقفى وهذا المجلس الإكليروسى وأصبحت خضوعا للدولة وتابعة لها .

وفى ١٦ مايو استقال توماس مور من منصب الحجابة بعد أن فشل فى الوقوف أمام التيار المناهض لرجال الإكليروس وانسحب إلى بيته . ومات رئيس الأساقفة واهرام فى أغسطس بعد أن أملى وهو على فراش الموت رسالة أبدى فيها رفضه لخضوع المجلس الإكليروسى للملك . واستبدل هنرى بتوماس مور توماس أودلى ، وبواهرام ، توماس كرانمر . ومضت الثورة قدماً . وأجاز المجلس النيابى « قانون الاستئناف »، وبمقتضاه كان كل نزاع أرسل سابقاً إلى روما للفصل فيه يحسم « فى المحاكم الروحية والزمنية داخل المملكة دون اعتبار ،لأى منع أو حرمان من غفران الكنيسة أو تحريم يصدر من جهة أجنبية(١٣) » .

وفى ١٥ يناير سنة ١٥٣٣ تزوج هنرى من آن التى كانت حاملا منذ أربعة شهور(١٤). وكان لدى الملك وقتذاك أسباب ملحة لإعلان بطلان زواجه من كاترين ، ولما كان قد بعث بطلب آخر للبابا دون أن يؤدى إلى نتيجة ، فقد حصل من المجلس الإكليروسى على موافقة على « طلاقه » (إبريل سنة ١٥٣٣) وفى ٢٣ مايو أعلن كرانمر بصفته رئيس أساقفة كنتربرى أن الزواج بكاترين مخالف للشريعة وباطل ، وفى يوم ٢٨ مايو أعلن أن آن زوجة شرعية لهنرى . وركبت آن بعد ثلاثة أيام وهى ترتدى الديباج وتتزين بالجواهر لكى تتوج ملكة لإنجلترا فى احتفال ملكى مهيب ، وضعت تصميمه التقاليد وهانز هولبين الصغير . ولاحظت وسط مظاهر الابتهاج صمت الجماهير الدال على الاستنكار ، ولعلها تساءلت إلى متى يحمل رأسها القلق التاج ؟

وأعلن البابا كليمنت بطلان الزواج الجديد : وأن الأولاد الذين سيكونون ثمرة له غير شرعيين ، وحرم الملك من غفران الكنيسة (٢٢ يوليو سنة ١٥٣٣)

وولدت اليزابث يوم ٧ سبتمبر وأبلغ سفير شارل مولاه أن حظية الملك أنجبت ابنة سفاح(١٥) .

واستأنف المجلس النيابى ، الذى كان قد أجل يوم ٤ مايو جلساته فى ١٥ يناير سنة ١٥٣٤ . وكانت موارد الأساقفة الجدد فى السنة الأولى والموارد البابوية الأخرى قد خصصت نهائياً وقتذاك للتاج ، وأصبح تعيين الأساقفة امتيازاً للملك من الناحية القانونية ، كما جرى العمل به فعلا . ونقلت دعاوى الاتهام بالهرطقة من القضاء الكنسى إلى القضاء المدنى .

وفى عام ١٥٣٣ أذاعت اليزابث بارتون وهى راهبة من كنت أنها تلقت أوامر من الرب بإدانة الزواج الثانى للملك ، وأنها قد سمح لها برؤية المكان الذى يعد لاستقبال هنرى فى الجحيم . وعرضتها المحكمة الملكية لاختبار قاس ، وانتزعت منها اعترافاً بأن رؤاها الإلهية كانت إفكاً وخداعاً ، وأنها سمحت لآخرين باستخدامها فى مؤامرة للإطاحة بالملك(١٦) . وحوكمت هى وستة « شركاء فى الجريمة » أمام مجلس اللوردات وقضى عليهم بالإدانة ، ونفذ فيهم حكم الإعدام (٥ مايو سنة ١٥٣٤) ، واتهم الأسقف فيشر بأنه علم بالمؤامرة وتقاعس عن تحذير الحكومة ، واتهم أيضاً بأنه كان هو وكاترين مطلعين على أسرار خطة وضعها شابويس ولم يشجعها شارل ، لغزو إنجلترا فى الوقت الذى يقوم فيه أنصار كاترين بالتمرد(١٧) . وأنكر فيشر التهم الموجهة إليه ، ولكنه ظل موضع الاشتباه بالخيانة .

وكان توماس كرومويل أشد وكلاء هنرى العدوانيين فى هذه الأمور . وقد ولد عام ١٤٨٥ ، وهو ابن حداد من بوتنى ، ونشأ فى فقر ومسغبة ، ومضى يضرب سنوات فى أرض فرنسا وإيطاليا أفاقاً بالفعل ، وعاد إلى انجلترا واشتغل بصناعة النسيج وأصبح مرابياً وكون ثروة ، وخدم ولزى بإخلاص خمس سنوات ، ودافع عنه فى أيام البؤس ، واكتسب احترام

هنرى بسبب صناعته وولائه . وعين على التوالى حاجباً لخزانة الدولة وأميناً للسجلات وكاتم سر للملك (مايو سنة ١٥٣٤) ، وكان فى الفترة من عامى ١٥٣١ و ١٥٤٠ المدبر الأكبر لشئون الحكومة باعتباره منفذاً مطيعاً للإرادة الملكية ، واتهمه أعداؤه الأرستقراطيون ، الذين احتقروه بوصفه حديث نعمة يرمز لخصومهم الصاعدين ، رجال الأعمال ، بأنه يطبق مبادئ « أمير » مكيافلى ، بقبول الرشـــا وبيع المناصب وحب الثروة والسلطان حباً يجاوز الحدود . وكان هدفه ، الذى سعى جاهداً لإخفائه ، هو أن يجعل الملك صاحب الكلمة العليا فى كل مجال من مجالات الحياة الإنجليزية ، وأن يمول ملكية مطلقة بثروة الكنيسة المصادرة ، وأظهر فى سعيه لتحقيق أغراضه مقدرة تامة لا تعرف تأنيب الضمير ، وضاعف ثروته ، وكسب كل معركة خاضها ما عدا الأخيرة ، والراجح أن هنرى ، وقد أزعجه تزايد عداء الشعب له ، استدرج المجلس النيابى ، بناء على اقتراحه وعن طريق احتياله ، إلى الموافقة على قانون وراثة العرش (٣٠ مارس سنة ١٥٣٤) الذى أعلن أن الزواج بكاترين غير صحيح ، وحول مارى إلى ابنة سفاح ، وعين اليزابث وريثة للعرش إلا إذا أنجبت آن ولداً ، ونص على أن أى شخص يجادل فى صحة زواج آن بهنرى يستحق أقصى عقاب . وقضى القانون بأن يحلف جميع الإنجليز رجالا ونساء يمينا بالولاء للملك . وأخـــذ مندوبون للملك يؤازرهم جنود ، يخترقون البلاد راكبين ، ودخلوا البيوت والقصور وأديار الرهبان وأديار الراهبات ، وانتزعوا اليمين كرها . ولم يرفض حلف اليمين إلا قلة ضئيلة من بينهم الأسقف فيشر وتوماس مور : وعرضوا أن يحلفوا على ما جاء بشأن وراثة العرش على ألا يقسموا على باقى ما تضمنه القانون . وحكم عليهم بالسجن فى البرج . وصوت المجلس النيابى آخر الأمر على قانون السيادة الحاسم (١٢ نوفمبر سنة ١٥٣٤) ، وأكد هذا القانون سيادة الملك على الكنيسة والدولة فى انجلترا ، وعمد الكنيسة الوطنية الجديدة باسم الكنيسة

الانجليكانية ، وخول الملك كل هذه السلطات على الأخلاق والتنظيم والهرطقة والعقيدة والإصلاح الكنسى ،وكانت حتى وقتذاك من اختصاص الكنيسة . ونص القانون على أن المرء يرتكب جريمة الخيانة إذا تحدث عن الملك أو كتب عنه أنه مغتصب أو طاغية أو انقسامى أو هرطيق أو كافر . وطلب من جميع الأساقفة أن يحلفوا يمينا جديدة بأنهم يقبلون سيادة الملك المدنية والكنسية دون تحفظ « بقدر ما تسمح شريعة المسيح » ، وأنهم لن يرضوا أبداً فى المستقبل باستئناف السلطة البابوية فى إنجلترا . وانتشرت كل قوات الحكومة لشل حركة المعارضة لهذه المراسيم ، التى لم يسبق لها مثيل . وتظاهر رجال الإكليروس العلمانيون بالخنوع شيئاً فشيئاً ، وأحجم كثير من الرهبان والإخوان الرهبان عن حلف الأيمان ، نظراً لولائهم للبابا ، وأسهمت مقاومتهم فى اتخاذ الملك قراره الأخير بإغلاق الأديار .

وأحنق عناد الإخوة الرهبان فى تشارتر هاوس ، وهو دير كارتوزى لندن ، هـــنرى وكروموبل بخاصة . وجاء ثلاثة من رؤساء الأديار الكارتوزيين إلى كروموبل ليقدموا له إيضاحاً عن إحجامهم عن الاعتراف بأى علمانى رئيساً للكنيسة فى إنجلترا ، فبعث بهم كروموبل إلى سجن البرج . وفى يوم ٢٦ ابريل سنة ١٥٣٥ حوكموا هم وراهب آخر وقسيس علمانى أمام قضاة الملك الذين كانوا يميلون إلى الصفح عنهم ، غير أن كروموبل خشى أن يشجع الرفق على المزيد من المقاومة ، فطالب بقرار بالإدانة وأذعن القضاة .

وفى يوم ٣ مايو جر الرجال الخمسة وكانوا لا يزالون يرفضون قبول قانون السيادة على زحافات إلى تيبرن وعلقوا واحداً وراء الآخر وأسقطوا بقطع الحبال وهم أحياء وقطعوا إرباً(١٨) وعلقت ذراع مبتورة على مدخل عقد تشارتر هاوس لتلقين الرهبان الباقين درساً ، ولكن أحـــداً منهم لم

يتراجع عن رفضه . وسجن ثلاثة فى البرج وشد وثاقهم وهم منتصبون بسلاسل من حديد حول أعناقهم وأقدامهم ، وأكرهوا على الوقوف فى هذا الوضع سبعة عشر يوماً . وقدم إليهم الطعام ، ولكن لم يفك وثاقهم لقضاء أى حاجة طبيعية . أما باقى الرهبان الكارتوزيين ، وكانوا لا يزالون يبدون عناداً ومشاكسة فقد تشتتوا فى أديار أخرى ما عدا عشرة منهم ، سجنوا فى نيوجيت ومات تسعة من هؤلاء من «حمى السجن وقذره[١٩] » .

وكان هنرى وقتذاك هو الحكم الوحيد فيما يتعين على الشعب الإنجليزى أن يؤمن به فى مجالى الدين والسياسة . ولما كان لاهوته لا يزال كاثوليكياً من كل وجه فيما عدا السلطة البابوية فقد اتخذ مبدأ مطاردة النقاد البروتستانت للمذهب الكاثوليكى بغير تحيز ، والنقاد الكثالكة لسيادته الكلسية ، والحق أن مطاردة الهراطقة قد استمرت وظلت طوال مدة حكمه . وفى عام ١٥٣١ أحرق توماس بلنى بأمر أصدره الحاجب توماس مور ، لأنه انتقد الصور الدينية ، ورحلات الحج والصلوات من أجل الميت . وقبض على جيمس بينهام لأنه اعتبر أن المسيح لا يكون حاضراً فى القربان المقدس إلا بروحه فعذب لكى ينتزع منه أسماء هراطقة آخرين ، وتشبث بما قال وأحرق فى سمثفيلد فى ابريل عام ١٥٣٢ . وأحرق آخران فى ذلك العام وعرض أسقف لندن أن يمنح فى خلال أربعين يوماً صك غفران للمسيحيين الصالحين الذين يحملون حزمة من الحطب لتغذية النار[٢٠].

ووصل عهد الإرهاب إلى ذروته فى اضطهاد فيشر ومور ، وقد وصف إرازاموس أسقف روشيستر بأنه « شخص مثقل بكل فضيلة[٢١] » بيد أن فيشر نفسه كان قد اقترف ذنب الاضطهاد ، وقد انضم إلى السفير الأسبانى فى حث شارل على غزو إنجلترا وخلع هنرى[٢٢] . وقد اقترف فى نظر القانون جريمة خيانة الدولة ، وهو أمر لم يشفع له عندما احتج بأنه كان مخلصاً للكنيسة . وارتكب الحبر الأعظم الجديد ، بولس الثالث خطأ بتعيين

الأسقف المسجون كاردينالا ، وعلى الرغم من أن فيشر أعلن إنه لم يسع إلى هذا الشرف ، فإن هنرى رأى وقتذاك فى هذا التعيين تحدياً له . وفى ١٧ يونيه سنة ١٥٣٥ قدم الأسقف ، وكان وقتذاك فى عامه الثمانين ، إلى محاكمة أخيرة ورفض مرة أخرى أن يوقع على قسم يعترف فيه بهنرى رئيساً للكنيسة الإنجليزية ، واقتيد فى ٢٢ يونية إلى كتلة على تل تاور . ووصفه شاهد عيان بأنه « جسد طويل أعجف ، لا شىء فيه سوى الجلد والعظام ، إلى حد أن معظم من شاهدوه دهشوا من رؤية رجل لايزال فيه رمق من حياة ، على الرغم من باوغه هذا الحد من الوهن(٢٣) » .

وتلقى وهو على منصة المقصلة عرضا بالعفو عنه إذا حلف اليمين فرفض وعلق رأسه المقطوع فوق جسر لندن . وقال هنرى : فى وسعه أن يذهب الآن ، إذا استطاع ، إلى روما ويحصل على قلنسوة الكاردينال(٢٤) » .

ومع ذلك فقد بقى هناك مكابر عنيد أشد مراساً .

٢ — مؤلف المدينة الفاضلة

كان والد توماس مور محامياً ناجحاً وقاضياً بارزاً . وتلقى توماس تعليمه فى مدرسة سانت أنطونى بلندن ، وعمل وصيفاً لرئيس الأساقفة مورتون ، وكان لهذا الفضل فى تثبيت عقيدته المحافظة وتكامله وتقواة المرحة . وتنبأ مورتون ، كما يقال لنا ، بأن « هذا الطفل الذى يخدم هنا على المائدة ... سوف يثبت أنه رجل عجيب(٢٥) » . وذهب الشاب إلى أكسفوردوهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وسرعان ما فتن بالأدب الكلاسى إلى درجة حملت والد الشاب على انتزاعه من الجامعة ، لإنقاذه من أن يصبح أديبا خاوى الوفاض وبعث به لدراسة القانون فى لندن ، وكانت أكسفورد وكامبردج لا تزالان تستهدفان إعداد الطلاب للعمل فى سلك الكهنوت . وكانت كلية

نيو إن وكلية لنكولن إن(*)تدربان الرجال الذين كانوا وقتذاك يشرفون من بين رجال الاكليروس على الحكومة فى انجلترا، ولم يتلق من أعضاء مجلس العموم تعليما جامعيا سوى ثمانية أعضاء بينما كانت هناك نسبة مرتفعة من المحامين ورجال الأعمال .

وفى عام ١٤٩٩ التقى مور ، وكان فى الحادية والعشرين من عمره ، بإرازموس وافتتن بالمذهب الإنسانى . وتعد صداقتهما من أطيب العطور شذى فى ذلك العصر . فقد وهب كلاهما مرحاً بقدرما ، وجعلا لدراستهما طعماً مستساغاً بالهجو الضاحك . وكانا يشتركان فى كراهية الفلسفة الكلامية التى قال مور إن ما تنطوى عليه من خبث فى التفريق بين الأشياء يعود على المرء بفائدة توازى ما يكسبه من حلب تيس فى غربال(٢٦). وكانا يأملان فى إصلاح الكنيسة من الداخل وتجنب تفكك أواصر الوحدة الدينية والتواصل التاريخى . ولم يكن مور نداً لإرازموس فى العلم أو التسامح ، والحق أن رقته المألوفة وكرمه كان يشوبهما فى بعض الأوقات تطرف فى الدين ، وكان فى الجدل ينحنى بين آن وآخر مثل كل معاصريه، ليوجه لخصومه طعنا شديداً مريراً(٢٧) . ولكنه كان يفوق إرازموس فى الشجاعة والإحساس بالكرامة والإخلاص لقضية . ولا شك أن الرسائل التى تبادلاها تعد شاهداً ثمينا على أفضال عصر فظ . فهناك رسالة لمور يقول فى ختامها « وداعا يا إرازموس الحبيب يا من هو أعز على من عينى(٢٨) » .

وكان من أعظم رجال الدين فى القرن الذى عاش فيه ، أخزى بتقواه العلمانية تهافت رجال الكهنوت من أمثال ولزى على الدنيا . وفى الثالثة والعشرين عندما تبحر فى دراسة القانون فكر فى أن يصبح قسا . وألقى

(*) كليتان لدراسة الحقوق على النظام الداخلى أشبه بنظام « الرواق » فى الأزهر الشريف — المترجم.

محاضرات عامة (١٥٠١) عن مدينة الرب التى بشر بها أوغسطين ، وجلس بين مستمعيه علماء تحارير أكبر منه سنا مثل جروسين .

وعلى الرغم من انتقاده الرهبان لتقاعسهم عن الامتثال لما يفرضه عليهم نظامهم فإنه أعجب إعجاباً شديداً بنظام الدير المخلص ، وأسف أحياناً لأنه لم يختر هذا النظام، وظل وقتا طويلا يرتدى قميصا من شعر الخيل لا يابس تحته شيئا ، وكان بين آن وآخر يسحب منه دما يكفى لتلطيخ ثيابه ببقع من الدماء ترى بوضوح . وكان يؤمن بالمعجزات ويصدق قصص القديسين والمخلفات التى تستخدم للعلاج والصور الدينية ورحلات الحج[٢٩] وكتب مصنفات ولائية لها نغمة القرون الوسطى. أن الحياة سجن وأن الهدف من الدين والفلسفة تهيئة نفوسنا للموت ، وتزوج مرتين وأنجب عدة أطفال أنشأهم على حب نظام مسيحى يتسم بالوقار والانشراح فى آن واحد ، وتصحبه صلاة متكررة وحب متبادل وإتكال كامل على العناية الإلهية . وكانت « دار مانور » فى تشلسى التى انتقل إليها فى عام ١٥٢٣ مشهورة بمكتبتها وصالة العرض فيها وحدائقها الممتدة إلى مائة ياردة إلى نهر التامبز .

واختير وهو فى السادسة والعشرين من عمره (١٥٠٤) نائباً بوصفه مواطناً حراً فى المجلس النيابى . وهناك ناقش بنجاح ضد إجراء اقترحه هنرى السابع مما دفع الملك إلى أن يسجن مور الكبير فترة قصيرة . ويفرض غرامة باهظة كوسيلة منحرفة لتلقين الخطيب الشاب درساً فى مواساة المواءمة .

وعند إغلاق ذلك المجلس النيابى عاد مور إلى الحياة الخاصة ونجح فى مزاولة القانون . وأقنع عام ١٥٠٩ بتولى منصب مساعد المشرف فى المدينة، أى فى لندن القديمة شمالى نهر التيمس . وكان مكلفا بتبعات تتفق ومزاجه ، وهى وظائف لها صيغة قانونية أكثر مما تتسم بالمخاطرة . وأكسبته أحكامه

شهرة واسعة، لما اتسمت به من حكمة وعدم تحيز ،وخالف برفضه المهذب للهدايا من المتخاصمين ، سوابق العهد الشائنة التى كانت لا تزال فى عنفوانها أيام فرانسيس بيكون . وسرعان ما عاد إلى المجلس النيابى وما إن حل عام ١٥١٥ حتى كان خطيب مجلس العموم .

ووصف إرازموس فى خطاب بعث به إلى هوتن مور (٢٣ يولية ١٥١٧)، بأنه متوسط القامة له بشرة شاحبة وشعر أصحم لا يهتم بالملبس أو المظهر زاهد فى الطعام والشراب ، منشرح سريع النكتة حاضر الابتسامة، يميل إلى الدعابات والخدع ويحتفظ فى بيته بمهرج وقرد وكثير من الحيوانات المدللة الصغيرة، « وكانت كل الطيور فى تشلزيا تأتى إليه ليطعمها » . وكان زوجا مخلصا وأبا محبا يعبد أولاده وخطيبا مقنعا ومستشارا أصيل الرأى ورجلا شديد الحرص على البر وخدمات الأصدقاء — واختتم هذا الرسم التمهيدى الذى يدل على الوله به بأنه « باختصار ماذا خلقت الطبيعة ألطف وأحلى وأسعد من عبقرية توماس مور(٣٠) ؟ » .

ووجد أمامه متسعا من الوقت لتأليف كتب وبدأ بكتاب « تاريخ رتشارد الثالث »، ولكن نزعته كانت حادة ضد الحكم المطاق، وكان يجلس على العرش حاكم مطلق ، ورأى أن من الفطنة أن يتجنب قضاء الكلمة المطبوعة ؛ ونشر بعد وفاته وكتب شكسبير مسرحية تقوم عليه ، ولعل السيرة الذاتية التى أذاعتها الدراما تحمل بعض المسئولية عن الخلق الذى يحمله رتشارد ، وفى عام ١٥١٦ طرح مور باللاتينية، كما لو كان يقوم بدعابة، كتابا من أشهر الكتب بأسرها ، مبدعاً كلمة ، وواضعا سابقة مقدما على خطوة للمدن الفاضلة الحديثة ومتوقعا نصف الاشتراكية ، ومعبرا عن نقد للاقتصاد والمجتمع والحكومة فى إنجلترا إلى حد أنه تسلح من جديد بالإقدام بعد التروى ونشر المجلد فى الخارج ست طبعات لاتينية قبل أن يسمح بطبعه

باللاتينية كذلك فى إنجلترا ؛ واعترف بأنه كتبه للتسلية دون أن يقصد نشره على الجمهور بيد أنه شكر إرازموس لاطلاعه عليه فى المطبعة بلوفان(٣١) وترجم إلى الألمانية والإيطالية والفرنسية قبل أن تظهر النسخة الإنجليزية (١٥٥١) بعد وفاة المؤلف بستة عشر عاماً . وما أن حل عام ١٥٢٠ حتى كان حديث القارة .

وأطلق عليه مور اسم « ليس فى موضع » ولا نعرف من خطر له ذلك الخاطر السعيد بتغيير هذا العنوان وسط الطباعة إلى المرادف اليونانى يوتوبيا أو المدينة الفاضلة(٣٢) وثم إخراج الحكاية بصورة بارعة جداً دفعت كثيراً من القراء إلى الاعتماد بأنها قصة حقيقية ويقال إن مبشراً دينياً قد فكر فى السفر وتحويل سكان المدينة الفاضلة إلى المسيحية(٣٣). وكان هنرى الثامن قد أرسل مور سفيراً إلى بروجس (١٥١٥) ومن هناك انتقل إلى أنتورب برسالة قدمه فيها إرازموس إلى بيتر جيلس كاتب المدينة . وادعت المقدمة أن جيلس قد قدم مور إلى ملاح برتغالى له لحية ، لوحت بشرته تقلبات الطقس ، يدعى رافاييل هيثلوداى ، وترادف باليونانية « ماهر فى الهذر » كان قد سافر بحراً مع أمريجو فسبوتشى عام ١٥٠٤ ، ودار حول الكرة الأرضية (ست سنوات قبل رحلة ماجلان) ، وزار فى العالم الجديد ، جزيرة سعيدة حل سكانها معظم المشكلات التى كانت تعانى منها أوروبا فى ذلك العهد . وجعلت طبعة لوفان للسخرية أكثر تقبلا بأن بدأت بحفر الخشب للجزيرة وعينة من لغة المدينة الفاضلة ؛ ولم يكشف المؤامرة إلا هفوة واحـــدة : فهيتلد واى يميل إلى الثناء على رئيس الأساقفة مورتون بكلمات(٣٤) أقرب إلى فطرة مور التى تعترف بالجميل من تجربة الملاح .

ويصف ماجلان الوهمى شيوعية سكان الجزيرة بقوله : « لما كان كل شىء على المشاع ، بين سكان المدينة الفاضلة فإن كل شىء متوفر لدى كل

إنسان . وأنا أقارن بينهم وبين كثير من الأمم . . . حيث يقول كل إنسان إن كل ما قد حصل عليه ملك خاص له وإنه أموال خاصة . وأنا أستمسك جيدا بما قاله أفلاطون . . . إن كل الناس يجب أن يحصلوا ويتمتعوا بحصص متساوية من الثروة والأمتعة . . . لأنه حيث ينتزع كل إنسان ، يتخذ ألقابا معينة ويتمسك بادعاءات ما ، ويختطف أكبر قدر يستطيع الحصول عليه بحيث نجد أن قلة هي التي تتقاسم فيما بينها كل البروات فلن يترك للباقين سوى العوز والفاقة(٣٥) .

وكل إنسان فى المدينة الفاضلة يأخذ إنتاجه إلى المخزن العام ويتسلم منه حسب ما تتطلبه احتياجاته . ولا أحد يطلب أكثر مما يكفيه لأن الأمان من الحاجة يصده عن الجشع . ويتناول الناس الوجبات على مائدة مشتركة ولكن للمرء أن يأكل فى بيته إذا شاء . وليس فى المدينة الفاضلة عملة ولا شراء بثمن رخيص ولا بيع بثمن غال ، وآفات الغش والسرقة والنزاع على الملكية غير معروفة . ولا يستخدم الذهب بوصفه عملة ، ولكن لصناعة أشياء نافعة مثل الأوانى التى نقضى فيها الحاجة . وهى لا تعرف المجاعات أو السنوات العجاف ،لأن المخازن العامة تحتفظ باحتياطى للطوارئ . وكل أسرة تشتغل بالزراعة والصناعة معاً ، يستوى فى ذلك الرجال والنساء . ولكى يتحقق إنتاج مناسب لا بد أن يعمل كل بالغ ست ساعات يوميا ، ويتحدد اختيار المهنة باحتياجات الجماعة . وسكان المدينة الفاضلة أحرار بمعنى الحرية من الجوع والخوف ، ولكنهم ليسوا أحرارا فى أن يعيشوا على حساب الآخرين . وفى المدينة الفاضلة قوانين بيد أنها بسيطة وقليلة ، ومن ثم ينتظر من كل إنسان أن يدافع عن قضيته ولا حاجة لوجود محامين . ويحكم على الذين يخالفون القانون بالعمل عبيدا للجماعة ، ويقومون بأداء المهام الكريهة ، ولكنهم يستعيدون المساواة الكاملة بأقرانهم بعد انتهاء دورهم . أما الذين يكدرون صفو الأمن تكديرا خطيرا فيحكم عليهم بالإعدام فى بلاد أخرى .

ووحدة المجتمع فى المدينة الفاضلة هى الأسرة الأبوية « والزوجات يهيمن على أزواجهن، والأولاد ينسبون لآبائهم(٣٦) » . والزواج من واحدة هو الشكل الوحيد الذى يسمح به فى مجال الارتباط الجنسى .

وقبل الزواج ينصح الخطيبان بأن يرى أحدهما الآخر وهو مجرد من الملابس، حتى يكتشف العيوب الجسمانية فى حينه، وإذا بلغت درجة كبيرة من الجسامة فإن العقد قد يلغى . وتذهب الزوجة لتعيش مع زوجها فى دار والده بعد الزواج ويسمح بالطلاق بسبب الزنا أو برضى الطرفين بشرط موافقة مجلس الجماعة . وتختار كل ثلاثين أسرة زعيم قبيلة كل عام ليحكمها ويختار كل عشرة من زعماء القبائل رئيساً لإدارة مقاطعة بها ٣٠٠ أسرة . ويكون المائتا زعيم للقبائل مجلساً قومياً ينتخب أميرا أو ملكا مدى الحياة .

ومن التبعات الأساسية الملقاة على عاتق زعماء القبائل المحافظة على صحة الجماعة بتزويدها بالمـــاء النظيف واتخاذ الإجراءات اللازمة للحفاظ على الصحة العامة وتوفير العناية الطبية والعلاج بالمستشفيات لأن الصحة أهم النعم على الأرض . وينظم الحكام التعليم للأطفال والكبار ويهتمون اهتماماً شديدا بالتدريب المهنى ويؤيدون العلم ولا يشجعون التنجيم وقراءة الطالع والخرافة . ولهم أن يشنوا الحرب على الشعوب الأخرى إذا رأوا أن هذا يقتضيه صالح الجماعة . « إنهم يعتبرون أن أعدل سبب للحرب يتوفر عند ما يحتفظ أى شعب بقطعة من الأرض فضاء ولا تستغل بأى صورة نافعة أو مربحة، ويمنع الآخرين من الاستفادة منها أو حيازتها ، وهم بحكم قانون الطبيعة يجب أن يطعموا ويفرج عنهم(٣٧)(هل كان هذا دفاعا عن استعمار أمريكا ؟) . بيد أن سكان المدينة الفاضلة لا يمجدون الحرب » لإنهم يكرهونها باعتبارها عملا وحشياً واضحاً ، ومناقضاً لشعور كل أمة أخرى تقريبا . ويرون أنه لا شىء أكثر خسة وتفاهة من المجد المستمد من الحرب(٣٨) » .

والدين فى المدينة الفاضلة لا يكاد يكون حراً تماما . وتعامل بالتسامح

أى عقيدة، اللهم إلا الإلحاد وإنكار خلود الإنسان، وفى وسع ساكن المدينة الفاضلة إذا شاء أن يعبد الشمس أو القمر . ولكن الذين يلجأون إلى العنف فى العمل أو الكلام عن أى دين معترف به يقبض عليهم ويعاقبون لأن القوانين تستهدف منع النزاع الدينى(٣٩) . والذين ينكرون الخلود لا يعاقبون بل يبعدون عن الوظيفة ويحرم عليهم إبداء آرائهم لأى إنسان اللهم إلا للقساوسة و « أصحاب الشأن » . وإلا « فإنه يباح لكل إنسان أن يؤثر ويتبع أى دين يشاء . . . ويستطيع أن يبذل كل جهده لإقناع آخر برأيه ما دام يفعل هذا سلميا وفى رصانة ، وفى غير ما عجلة وبلا زجر أو قدح يصدران عن نزاع ضد الآخرين(٤٠)» . ومن ثم فإن فى المدينة الفاضلة عدة أديان بيد أن « أعظم وأحكم دور . . . هو الإيمان بوجود قوة إلهية معروفة ، دائمة ، لا تدرك ولا تفسر ، أعظم من أن يدركها عقل الإنسان ومقدرته ، متفرقة فى أنحاء العالم(٤١)». والرهبانية مسموح بها بشرط أن يشغل الرهبان أنفسهم بأعمال البر والمنفعة العامة ، مثل إصلاح الطرق والجسور وتطهير الخنادق وقطع الأخشاب والعمل خدما بل ورقيقا ، وفى وسعهم أن يتزوجوا إذا رغبوا . وهناك قساوسة ، ولكنهم يتزوجون أيضاً . وتعتبر الدولة أن أول وآخر كل شهر وكل عام بمثابة أعياد دينية ، ولكن فى تأدية الاحتفالات الدينية فى هذه العطلات ، « لا يرى تمثال أى إله فى الكنيسة » ، ولا تؤدى صلوات ، ولكن فى وسع كل إنسان أن يتلو صلاة ما فى جرأة دون أن يسىء إلى أى طائفة(٤٢)» . وفى كل يوم من هذه العطلات تسجد الزوجات والأطفال أمام أزواجهن أو آبائهم، ويطلبون الصفح عن أى ذنب قد اقترفته أو أى واجب يكونون قد أخلوا به ، ولا يسمح لأحد بالحضور إلى الكنيسة إلا بعد أن يسود الوئام والسلام بينه وبين عدوه . وهذه لمسة مسيحية ، ولكن إنسانية مور الفتية تبدو فى قبوله الجزئى لوجهة النظر اليونانية عن الانتحار . إذا عانى إنسان من مرض عضال غير قابل للشفاء ، فإنه

يسمح له ويشجع على إنهاء حياته . أما فى الحالات الأخرى فإن مور يعتقد أن الانتحار جبن ، ويروى « أن الجثة يجب أن تلقى دون دفن فى مستنقع نتن(٤٣) » .

ولا نعرف كم من هذه يمثل النتائج التى توصل إليها مور بعد تروٍ ، وكم منها كان من تفكير إرازموس ، وكم منها كان من وحى الأعيب الخيال . وعلى أية حال فإن السياسى الشاب أبعد نفسه فى حرص عن اشتراكية سكان المدينة الفاضلة ، وهو يتمثل نفسه بقول هيثلوداى : « أرى أن كل الناس لن يعيشوا فى ثراء حيث تكون كل الأشياء على المشاع . لأنه كيف تكون هناك وفرة فى السلع . . حيث نجد أن نظرة الإنسان إلى مكاسبه الشخصية لا تدفعه إلى العمل ، ولكن الأمل يراوده فى أن يجد فى عناء الآخرين ما يجعله ينعم بالكسل . لا يمكن أن تكون كل الأمور على ما يرام ، ما لم يكن كل الناس صالحين ، وهو ما أعتقد أنه لن يحدث فى هذه السنين العديدة الطويلة(٤٤) » . ومع ذلك فإن بعض التعاطف على ضروب الحنين المتطرفة لا بد أن يكون قد استلهم بصورة كبيرة المثال الشيوعى . وثمة صفحات أخرى فى المدينة الفاضلة تنتقد فى غضب قسوة استغلال الأغنياء للفقراء . وفيها تنديد بإحاطة اللوردات الإنجليز لبعض الأراضى العامة بسياج ، وذلك بصورة مفصلة وروح لا يتوقعان فيما يبدو ، من أجنبى . ويقول هيثلوداى لمور : « إن الطمع الجائر للقلة قد تحول إلى الخراب التام لجزيرتك . إن هؤلاء الأغنياء لا يطيقون إلا أن يشتروا كل شىء ليتلهوا ويستأثروا بكل شىء ويتحكموا فى السوق وحدهم كما يشاءون باحتكارهم(٤٥) » . وعندما أفكر وأزن بعقلى كل هذه الحكومات التى تزدهر الآن فى كل مكان فإنى لا أفهم — وليساعدنى الله — إلا أن هناك مؤامرة ، يدبرها الأغنياء لترويج سلعهم باسم الجمهور . إنهم يخترعون ويتوسلون بكل الوسائل والخدع . .

كيف يستأجرون ؛ . ويتعسفون . . . فى جهد الفقراء مقابل مبلغ صـــغير بقدر الإمكان . . . وهذه الحيل تؤدى إلى سن القوانين (٤٦) .

وهذا يكاد يكون صوت كارل ماركس يحرك العالم من سفح فضاء فى المتحف البريطانى ، ولا شك أن المدينة الفاضلة هى أقوى ضروب الاتهام وأولها للنظام الاقتصادى الذى استمر فى أوروبا الحديثة حتى القرن العشرين، وإنها سوف تظل معاصرة مثل اقتصاد يسير وفق خطة معينة ومثل رفاهية الدولة أيضاً .

٣ — الشهيد

كيف تأتى لرجل تعج فى رأسه مثل هذه الأفكار أن يعـــين فى مجلس هنرى الثامن فى السنة التالية لنشر كتاب المدينة الفاضلة ؟ الراجح أن الملك على الرغم مما اشتهر به من علم ، لم يستطع أن يتحمل قراءة الكتاب باللاتينية ومات قبل أن ينشر بالإنجليزية . واحتفظ مور بخواطره المتطرفة لأصدقائه . وعرفه هنرى مزيجاً نادراً من المقدرة والكمال ، وقدّره باعتباره صلة وثيقة بينه وبين مجلس العموم ، ونصبه فارساً وعينه وكيلا للخزانة (١٥٢١) ، وعهد إليه بمهام دبلوماسية دقيقة .

وعارض مور السياسة الخارجية التى انتهجها ولزى وقاد بها إنجلترا للحرب مع شارل الخامس ، إذ أن الإمبراطور فى نظر مور لم يكن داهية خطيراً فحسب ، بل كان أيضاً البطل المدافع عن العالم المسيحى ضد الأتراك . وعندما سقط ولزى نسى مور حتى وقتذاك أخلاقياته ليراجع — فى المجلس النيابى — زلاته وأخطاءه التى أدت إلى السقوط . وكان ، بصـــفته زعيما للمعارضة ، الخليفة المنطقى لأكاردينال ، وظل يعمل رئيساً لوزراء (حاجباً) إنجلترا واحداً وثلاثين شهراً .

ولكن الملك كان الخليفة الحقيقى لولزى . فقد اكتشف هنرى قوته ومقدرته وقال إنه قرر أنه يحرر نفسه من بابوية تكن له العداوة وتقف فى طريقه وأن يسبغ صفة الشرعية على زواجه بامرأة أحبها وتستطيع أن تنجب له وريثاً للعرش .

ووجد مور نفسه لا يوجه السياسة بل يخدم الأهداف التى تسير فى اتجاه مضاد لأعمق مشاعر الولاء التى يطويها بين جوانحه . وواسى نفسه بتأليف كتب ضد اللاهوت البروتستانتى وبمطاردة زعماء البروتستانت . وأتفق فى كتاب حوار يتعلق بالهرطقة (١٥٢٨) وفى كتب متأخرة ، مع فرديناند الثانى وكالفن والأمراء اللوثريين على ضرورة الوحدة الدينية لتحقيق القوة والسلام القوميين . وخشى انقسام الإنجليز إلى اثنتى عشرة أو مائة طائفة دينية . ومع أنه كان قد دافع عن ترجمة إرازموس للعهد الجديد إلى اللاتينية فإنه احتج ضد نسخة تندال الإنجليزية باعتبارها تحريفاً للنص بصورة تثبت وجهات النظر اللوثرية ، وشعر بأن ترجمات الكتاب المقدس يجب ألا تتحول إلى أسلحة يشرعها فلاسفة الحانة . وعلى أية حال فإنه تمسك بأن الكنيسة كانت أداة ثمينة جداً للنظام والمواساة والإلهام ، بحيث لا يجوز تمزيقها إرباً بالاستدلال المتسرع من مجادلين معجبين بأنفسهم .

وانتقل من هذه الحال إلى إحراق البروتستانت على المحرقة . أما الاتهام الذى وجه إليه بأنه أمر بجلد رجل فى بيته بسبب الهرطقة (٤٧) فإنه موضع خلاف ، ويبدو أن رواية مور عن المذنب بعيدة عن اللاهوت « إذا نظر خلسة لأية امرأة وهى تركع » فى الصلاة و « إذا تدلى من رأسها شىء فى تضرعاتها فإنه عندئذ يتسلل وراءها . . . يعمل على رفع كل ثيابها ويقذف بها فوق رأسها(٤٨) » . ويمكن أن يقال إنه فى أحكام الإعدام الثلاثة التى أعلنت فى أسقفيته إبان توليه منصب الحاجب ، كان يستجيب فيها للقانون ، الذى كانت الدولة فى حاجة إليه ليكون العضد العلمانى للمحاكم الكنسية(٤٩) ،

ولكن ليس من شك فى أنه وافق على عمليات الإحراق(٥٠) . ولم يسلم بوجود أى تناقض بين سلوكه والتسامح الكبير فى الاختلافات الدينية الذى أبداه فى مدينته الفاضلة ، لأنه حتى هناك رفض التسامح مع الملحدين والمنكرين للخلود ؛ وهؤلاء الهراطقة الذين لجأوا إلى العنف أو توسلوا بالطعن . ومع ذلك فقد ارتكب هو نفسه جريمة الطعن بمجادلته البروتستانت الإنجليز(*) .

وجاء الوقت الذى رأى فيه مور أن هنرى أخطر الهراطقة على الإطلاق . ورفض الموافقة على زواجه من آن بولين ورأى في التشريع المناهض لرجال الدين الذى صدر فى ١٥٢٩ — ٣٢ اعتداء صارخاً على كنيسة يرى أنها بمثابة قاعدة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى . وعندما تقاعد من المنصب وانسحب إلى خلوة بيته فى تشلسى (١٥٣٢) كان لا يزال فى عنفوانه ، فى الرابعة والخمسين من عمره ، ولكنه كان يرتاب فى أنه لن يعيش طويلا . وحاول أن يهيئ أسرته للمأساة بالحديث (هكذا يقول زوج ابنته وليام روبر) عن حياة الشهداء الأحرار وعن مجلدهم العجيب وعما كابدوه من آلام وعن ميتتهم التى آثروا فيها أن يتعرضوا للعذاب على أن يسيئوا إلى

(*) « ومع ذلك فهناك خنزير لا يتلقى أى تعليم إلا ليدنسه وهناك كلاب تمزق بأنيابها كل علم نافع . . ولا يكفى أن يعظ الناس أمثال هؤلاء الكلاب بل يجب جلدهم بالسياط والمقارع بعنف ، والحيلولة بينهم وبين تمزيق العلم النافع بأنيابهم . . . إلى أن يستكينوا ويصيخوا السمع لما يقال لهم . وبهذه الوسائل يمنع الخنزير من إلحاق الأذى ، والكلاب تخضع أحياناً للتعليم إلى حد . . أنها تتعلم كيف ترتقص على مزمار سيدها . والعقاب رادع فى حين أن التعليم المجرد منه لا يكفى . فمن هم الكلاب بمعنى الكلمة الآن سوى هؤلاء الهراطقة الذين ينبحون على القرابين المقدسة المباركة . . . ومن هم الخنازير بمعنى الكلمة سوى هراطقة أيامنا هذه ، وهم من ضرب نجس لم يشهده أحد قط من قبل ؟

وفى مثل هذا الموكب الرزين أقسم جميع أصحاب القداسة على العفة . . وتحولوا إلى جرية تذرة شائنة ينعم بها الرهبان بنكاح الراهبات »(٥١) .

الرب فأى شىء أسعد وأكثر بركة من أن يحب الله وأن يتعرض لفقد المال والسجن وضياع الأرض بل والحياة أيضاً » . وكان فضلا عن هذا يقول لهم معتصما بعقيدته إذا أدرك أن أبناءه سوف يشجعونه على الترحيب بالموت فى سبيل هدف سام فإنه سوف يجد فى هذا من السلوى ما يملأ نفسه حبوراً ولهذا السبب يهرع إلى الموت مبتهجاً(٥٢) .

وتحقق كل ما توقعه ، فقد اتهم عام ١٥٣٤ ، ووجهت إليه تهمة بأنه كان على علم بمؤامرة تتعلق براهبة كنت ، فأقر بأنه التقى بها ، وآمن بأنها تتلقى الوحى ، ولكنه أنكر أنه كان على علم بالمؤامرة . وتشفع كرومويل ، وتفضل هنرى بالصفح عنه . ولكن فى السابع عشر من ابريل حكم على مور بالسجن فى البرج لأنه رفض أن يحلف اليمين على قانون الوراثة ، الذى رأى عندما قدم إليه أنه ينطوى على إنكار لسيادة البابا على الكنيسة فى إنجلترا .

وكتبت إليه ابنته الأثيرة مرجريت رسالة ترجوه فيها أن يحلف اليمين ، فرد عليها بأن توسلها سبب له ألماً أشد مما سببه له سجنه . وزارته زوجته (الثانية) فى البرج وانتهرته (كما يقول روبر) لعناده :

« إنى لأعجب لك فى هذا العام يا مستر مور ، يا من كنت أحسبك حتى الآن رجلا عاقلا ، لماذا تتظاهر بالحمق ، فترقد هنا فى هذا السجن الضيق القذر ، وترضى بأن تحبس بين الفئران والجرذان ، بينما فى وسعك أن تكون حراً فى الخارج ، وتنعم بحظوة ورضا الملك ومجلسه ، إذا فعلت فقط ما فعله كل الأساقفة وخير المتعلمين فى هذه المملكة . وعندما أرى أن لك فى تشلسى بيتاً جميلا لائقاً ، وأرى مكتبتك وكتبك وقاعة صورك وحديقتك وبستانك وكل الضروريات الأخرى ، تبدو جميلة من حولك ، حتى لتستطيع أن تسعد برفقتى ، أنا زوجتك ، ورفقة أولادك وأسرتك ، فإنى أتأمل باسم الرب ماذا تعنى بمكوثك هنا وكلفك بإطالة أمده(٥٣) » .

وبذلت محاولات أخرى لزحزحته عن موقفه ، بيـــد أنه قاومها كلها بابتسامة .

وفى أول يولية سنة ١٥٣٥ قدم لمحاكمة أخيرة . فدافع عن نفسه جيداً ولكن حكم عليه بالإدانة لخيانة الدولة ، وبينما كان عائداً من وستمنستر إلى البرج اقتحمت ابنته مرجريت صفوف الحرس ، واحتضنته وتقبلت بركته الأخيرة . وفى اليوم السابق لإعدامه أرسل قميصه المصنوع من الشعر إلى مرجريت ومعه رسالة « غداً نلتقى » لكى نذهب إلى الله . . . وداعاً يا ابنتى العزيزة ، صلى من أجلى ، وسوف أصلى من أجلك ، ومن أجل جميع أصدقائك ، لكى نلتقى فى السماء مسرورين(٥٤) .

وعندما ارتقى منصة المقصلة (فى ٧ يوليو) ووجد أنها ضعيفة توشك أن تنهار قال لأحد التابعين : « أرجوك أيها الملازم أن تراعى أن أكون فى أمان وأنا فى أعلاها ، وبالنسبة لنزولى دعنى أحتال لنفسى(٥٥) » . وطلب منه الجلاد الصفح والمغفرة فاحتضنه مور . وكان هنرى قد أصدر تعليمات بألا يسمح للسجين إلا ببضع كلمات . وطلب مور من المشاهدين أن يصلوا من أجله ، وأن يشهدوا بأنه تعرض للموت فى ســبيل عقيدة الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، ومن أجلها ، ثم طلب منهم أن يصلوا من أجل الملك ، وأن ينعم الله عليه بمشير صالح ، واحتج بأنه مات وهو خادم صالح للملك ، ولكنه خادم الرب أولا(٥٦). وتلا المزمار الحادى والخمسين ، ثم وضع رأسه على الكتلة ، وسوى بعناية لحيته البيضاء الطويلة ، حتى لا تتعرض لأى أذى وقال : « مما يؤسف له أنها سوف تقطع ، وأنها لم ترتكب جريمة خيانة الدولة(٥٧) » ، وعلق رأسه على جسر لندن .

وسرت موجة من الرعب فى إنجلترا التى أدركت وقتذاك قسوة الملك ، التى أصر عليها ، وسرت فى أوروبا قشعريرة من الفزع . وشعر إرازموس

أنه هو نفسه قد مات لأنه ، «ليس لنا إلا روح واحدة تتردد بيننا(٥٨) وقال انه لم تعد لديه وقتذاك أى رغبة فى الحياة . وبعد عام مات هو أيضاً . وعلم شارل الخامس بالحادث وقال للسفير الإنجليزى : « لو كنت سيداً لخادم مثل هذا توفرت لى — أنا نفسى — عن أعماله خبرة غير ضئيلة فى هذه السنوات العديدة ، فإنى كنت أفضل أن أفقد أحسن مدينة فى ممتلكاتى ولا أفقد مثل هذا المستشار الجليل(٥٩) » . وصاغ البابا بولس الثالث نشرة بابوية بحرمان هنرى الخارج على القانون من زمالة العالم المسيحى ، وتحريم الصلوات الدينية فى إنجلترا ، ومنع كل تجارة معها ، وحل كل الرعايا البريطانيين من إيمانهم بالولاء للملك ، وأمرهم هم وكل الأمراء المسيحيين بخلعه فوراً . ولما كان كل من شارل وفرانسيس لا يرحبان بهذه الإجراءات ، فإن البابا حجز صدور النشرة البابوية حتى عام ١٥٣٨ . وعندما أصدرها ، منع شارل وفرانسيس نشرها فى مملكتيهما ، إذ لم يرضيا التصديق على الادعاءات البابوية بوجود سلطة له على الملوك . وكان فشل النشرة البابوية إيذانا بضعف السلطة البابوية ، وارتفاع سلطان الدولة القومى .

ورأى دين سويفت أن مور رجل « يتمتع بأعظم الفضائل » — ولعله يستخدم الكلمة بمعناها القديم الخاص بالشجاعة — « بين الرجال الذين أنجبتهم هذه المملكة(٦٠) » .

وفى الذكرى الأربعمائة لإعدام توماس مور وجون فيشر أدرجتهما كنيسة روما بين قديسيها .

٤ — حكاية ثلاث ملكات

فقد هنرى ثلاثا من ست ملكات فى خلال ثلاثين شهرا من وفاة مور . فقد تلاشت حياة كاترين فى معتزلها الشمالى ، وهى لا تزال تدعى أنها زوجة هنرى الشرعية الوحيدة ، وملكة انجلترا صاحبة الحق الشرعى ؛ واستمرت

وصيفاتها فى إطلاق هذا اللقب عليها . وفى عام ١٥٣٥ نقلت إلى قلعة كيمبالتون قرب هنتنجدون، وهناك حبست نفسها فى حجرة واحدة ولم تكن تتركها إلا لحضور القداس . واستقبلت زوارا و « عاملتهم فى كرم زائد(٦١) » وحجزت مارى ، وكانت وقتذاك فى التاسعة عشرة فى هاتفيلد التى لا تبعد إلا بمسيرة عشرين ميلا ، غير أنه لم يسمح للأم ولا لابنتها بأن ترى إحداهما الأخرى ، ومنعاً من الاتصال ببعضهما ، ومع ذلك فإنهما تراسلا ، وتعد رسائل كاترين من أعظم الرسائل المؤثرة فى الأدب بأسره . وعرض هنرى عليهما دارين آخرين أفضل من داريهما ، إذا اعترفتا بملكته الجديدة ، فرفضتا . وعينت آن بولين عمتها مربية لمارى وأمرتها بأن تحتفظ « بابنة السفاح » وتلزمها حدها بـ « لكمة على الأذنين بين آن وآخر(٦٢) » . ومرضت كاترين فى ديسمبر سنة ١٥٣٥ وكتبت وصيتها وبعثت برسالة للإمبراطور تطلب منه حماية ابنتهـــا ووجهت وداعا مؤثرا لـ « سيدها وزوجها العزيز » الملك .

« إن ساعة وفاتى تقترب ولا حيلة لى إلا أن أنصحك ، بحكم ما أكنه لك من حب ، بأن نعنى بطهارة روحك التى يجب ان توثرها على كل الاعتبارات فى الدنيا ، أو على أى جسد تشتهيه مهما كان ، والذى من أجله قذفت بى فى كوارث عديدة ، وبنفسك فى متاعب كثيرة ولكنى أغفر لك كل شىء ، وأرجو الله أن يغفر لك أيضا ، وبالنسبة للباقى أوصيك خيراً بابنتنا مارى ، وأتوسل إليك أن تكون لها أباً صالحاً . . . وأخيراً فإنى أرد هذا القسم بأن عينى تريدان أن تبصرك فوق كل شىء وداعاً(٦٣) » .

وبكى هنرى عندما تسلم الرسالة ، وعندما ماتت كاترين (٧ يناير سنة ١٥٣٦) بالغة من العمر خمسين عاماً ، أمر الحاشية بإعلان الحـــداد . فرفضت آن(٦٤).

ولم تستطع آن أن تعرف أنها ستموت أيضاً فى خلال خمسة شهور ، ولكنها أدركت أنها خسرت الملك ، فقد أدى طبعها الحاد وسورات غضبها المتسمة بالصلف ، ومطالبها التى تبعث على الضجر ، إلى إنهاك هنرى الذى رأى أن لسانها السليط يتناقض مع رقة كاترين(٦٥) . وفى اليوم الذى دفنت فيه كاترين ولدت آن طفلا ميتاً ، وبدأ هنرى الذى كان لا يزال يتلهف على ولد يفكر فى طلاق آخر — أو فى بطلان للزواج كما سوف يفعل ، وروى عنه أنه قال إن زواجه الثانى نم تحت إغراء السحر ، ومن ثم فإنه باطل(٦٦) . وبدأ من أكتوبر سنة ١٥٣٥ يولى اهتماماً خاصاً بإحدى وصيفات آن وهى جين سيمور . وعندما أنبته آن أمرها بأن تتحمله فى صبر ، كما فعل من هن أفضل منها(٦٧) ، ولعله انتهج حيلا قديمة عندما اتهمها بالخيانة . إذ يبدو إنه مما لا يصدق أن تخاطر حتى امرأة نزقة بعرشها بلحظة تبذل ، ولكن يبدو أن الملك كان قد آمن فى إخلاص بأنها مذنبة . وأشار إلى الشائعات الدائرة عن غرامياتها التى وصلت إلى مجلسه ، فاستقصى الأمر وأبلغ الملك أنها اقترفت الزنا مع خمسة أعضاء من البلاط ، هم سير وليام بريريتون ، وسير هنرى نوريس ، وسير فرانسيس وستون ، ومارك سميتون ، وأخيها اللورد روشفورد ، وأرسل الرجال الخمسة إلى البرج وتبعتهم آن فى اليوم الثانى من مايو سنة ١٥٣٦ .

وكتب لها هنرى يعللها بالآمال فى الصفح عنها والرفق بها إذا كانت صادقة معه ، فردت بأنها ليس لديها ما تعترف به . وزعم خدمها فى السجن أنها أقرت بأنها تلقت عرضين بتبادل الحب مع نوريس ووستون ، بيد أنها ادعت أنها صدمتهما . وفى يوم ١١ مايو وبعد أن طلب من هيئة المحلفين الكبرى فى مدلسكس أن تقوم بتحقيق محلى فى الجرائم التى يقال إن الملكة قد ارتكبتها فى تلك البلاد أبلغت أنها وجدتها مذنبة لاقترافها الزنا مع جميع الرجال الخمسة المتهمين ، وقدمت أسماء وتواريخ معينة(٦٨) . و

يوم ١٢ مايو حوكم أربعة من هؤلاء الرجال فى وسنمنستر أمام هيئة محلفين، منهم والد آن الايرل أف ولتشاير . واعترف سميتون أنه مذنب كما اتهم ، أما الآخرون فدافعوا عن أنفسهم بأنهم غير مذنبين ، وحكم بإدانة الأربعة جميعاً . وفى يوم ١٥ مايو حوكمت آن هى وأخوها أمام جماعة مكونة من ستة وعشرين نبيلا برئاسة الدوق أف نورفولك وهو عمها ، ولكنه عدوها السياسى . وأكد الشقيقان أنهما بريئان ، ولكن كل عضو من جماعة القضاة أعلن أنه مقتنع بأنهما مذنبان ، وحكم عليهما بأن يحرقا أو يقطع رأساهما كما يتراءى للملك . وفى يوم ١٧ مايو شنق سميتون ، أما الرجال الأربعة الآخرون فقد قطعت رءوسهم كما يليق برتبهم . وفى ذلك اليوم طلب وكلاء الملك من رئيس الأساقفة كرانمر أن يعلن عدم صحة الزواج بآن وأن البزابث ابنة سفاح فأذعن . ولا تعرف الأسس التى بنى عليها هذا الحكم ، ولكن يظن أن زواج آن السابق المزعوم بلورد نورثمبرلاند أعلن وقتذاك أنه حقيقى .

وركعت آن هشية وفاتها أمام لادى كنجستون زوجة الحارس وطلبت منها منة أخيرة : أن تذهب وتركع أمام مارى ، تتوسل إليها باسم آن أن تصفح عن الأخطاء التى ارتكبت فى حقها ، بسبب كبرياء امرأة تعسة غير متبصرة(٦٩) ، وطلبت أن ينفذ فيها حكم الإعدام فوراً يوم ١٩ مايو . والظاهر أنها استمدت شيئاً من العزاء من فكرة خطرت لها هى : « لقد سمعت أن الجلاد بارع جداً ولى عنق صغير » — ومن أجل ذلك ضحكت واقتيدت ظهر ذلك اليوم إلى منصة المقصلة ، وطلبت من المشاهدين أن يصلوا من أجل الملك « لأنه ليس هناك أمير يبزه فى الرقة والرأفة(٧٠) ، ولم يكن هناك أحد يقطع بأنها مذنبة ، ولكن قليلين أسفوا لسقوطها .

وفى يوم وفاتها منح كرانمر للملك محللا بالزواج مرة أخرى فى سعيه

المتجدد للحصول على ولد ، وفى اليوم التالى خطب هنرى ، جين سيمور سراً ، وتزوجا يوم ٣٠ مايو ١٥٣٦ ، ونودى بها ملكة يوم ٤ يونية ؛ وكانت سليلة أسرة ملكية ، إذ أنها تنحدر من إدوارد الثالث ، وكانت لها صلة قرابة من الدرجة الثالثة أو الرابعة بهنرى ، مما دعا إلى الحصول على محلل آخر من كرانمر المطيع . ولم تكن تتمتع بجمال خاص ، بيد أنها أثرت فى الجميع بذكائها ورقتها بل وتواضعها ، ووصفها الكاردينال بول خصم هنرى اللدود بأنها : « ممتلئة بالطيبة » ، ولم تشجع محاولات الملك التقرب بها إبان حياة آن ، ورفضت قبول هداياه ، وأعادت رسائله دون أن تفتحها ، وطلبت منه ألا يحدثها إلا فى حضور آخرين(٧١)

وكان أول عمل تم بعد الزواج هو القيام بالتوفيق بين هنرى ومارى . وقام هنرى به بطريقته الخاصة فأمر كرومويل بأن يبعث لها برسالة عنوانها : « اعتراف لادى مارى » . وهى تعترف بالملك رئيساً أعلى للكنيسة فى انجلترا وتنكر « سلطة أسقف روما المزعومة »، وتعترف أن زواج هنرى بكاترين « من قبيل سفاح القربى وغير شرعى » . وطلب من مارى أن توقع باسمها على كل جملة ، ووقعت ولم تصفح عن نفسها قط . وبعد ثلاثة أسابيع أقبل الملك والملكة لرؤيتها وقدما إليها هدايا و ١٠٠٠ كراون ، وأطلق عليها مرة أخرى لقب أميرة ، وفى يوم عيد الميلاد لعام ١٥٣٦ استقبلت فى البلاط ، وهناك لا بد أن شيئا طيبا كان فى هنرى وفى « مارى الدموية » — لأنها كادت تتعلم فى السنوات الأخيرة أن تحبه .

وعندما اجتمع المجلس النيابى مرة أخرى (١٨ يونية سنة ١٥٣٦) أصدر بناء على طلب الملك قانوناً جديداً بوراثة العرش وبمقتضاه أعلن أن اليزابث ومارى على السواء بنتان غير شرعيتين ، وتقرر أن يقتصر التاج على الذرية المتوقع أن تنجبها جين سيمور .

ومات الدوق آن رتشموند ابن هنرى غير الشرعى ، وتعلقت آمال الملك كلها فى حمل جين . وهللت إنجلترا معه عندما ولدت (١٢ أكتوبر سنة ١٥٣٧) ولدا هو إدوارد السادس فى المستقبل . بيد أن جين المسكينة التى ارتبط بها الملك وقتذاك ارتباطاً عميقاً ، بقدر ما سمحت روحه ، التى تتركز حول ذاته ، ماتت بعد ولادة ابنها باثنى عشر يوما . وظل هنرى رجلا محطما بعض الوقت . وعلى الرغم من أنه تزوج مرة أخرى ثلاث مرات فإنه طلب عند وفاته أن يدفن بجانب المرأة التى ضحت بحياتها فى سبيل حمل ابنه .

ماذا كانت ردود الفعل لدى الشعب الإنجليزى بالنسبة لأحداث هذا العهد المضطرب ؟ من الصعب أن نقول شيئاً ، فالدليل فيه تحامل ويكتنفه الغموض ومشتت . وروى شابويس عام ١٥٣٣ أن رأى الكثرين من الإنجليز أن « الملك رتشارد السابق لم يكن قط مكروها من شعبه إلى هذا الحد مثل هذا الملك(٧٢) » . وقد تعاطف الشعب بوجه عام مع رغبة هنرى فى الحصول على ولد ، وأدان قسوته على كاترين ومارى ولم يذرف دموعاً على آن ، ولكنه صدم صدمة عميقة بإعدام فيشر ومور . وكانت أغلبية الأمة السابقة لا تزال تدين بالكاثوليكية(٧٣) ، وكان رجال الاكليروس — بعد أن حققت الحكومة وقتذاك لنفسها موارد الأساقفة حديثى التعيين فى السنة الأولى — يأملون فى التوفيق مع روما . ولكن لم يجرؤ أحد على أن يرفع صوته بنقد الملك . وتلقى نقداً ، ومن إنجليزى ولكن مع وجود القنال بينه وبين ذراع الملك .

كان ريجينا لدبول ابن مرچريت بلانتا حينت كونتيسة سالزبورى ، وهى نفسها ابنة أخى إدوارد الرابع ورتشارد الثالث . وقد تعلم على نفقة هنرى ، وكان يتسلم مرتبا من الملك قدره ٥٠٠ كراون كل عام ، والظاهر أنه كان يعد لتولى أعلى المناصب فى الكنيسة الإنجليزية . ودرس فى باريس

وبادوا ، وعاد إلى انجلترا ، وهو يتمع بحظوة كبيرة لدى الملك ، ولكن عندما أصر هنرى على سماع رأيه فى الطلاق ، رد ريجينالد صراحة أنه لا يستطيع أن يوافق عليه ما لم يصدق عليه البابا . ولم يقطع هنرى مرتب الشاب وسمح له بالعودة إلى القارة .

وهناك لبث بول اثنين وعشرين عاما وارتفع فى تقدير البابا باعتباره عالماً ومتضلعاً فى اللاهوت ، ونصب كاردينالا وعمره ستة وثلاثون عاماً (١٥٣٦) . وألف فى ذلك العام باللاتينية رسالة هجوم على هنرى هى دفاع عن وحدة الكنيسة . ورأى أن الأخذ بسيادة هنرى على الشئون الكنسية فى إنجلترا يدعو إلى الانقسام بين أبناء الديانة المسيحية وتشعبهم إلى قوميات منوعة ، وأن التصادم الناتج بين العقائد سيؤدى إلى فوضى اجتماعية وسياسية فى أوروبا . واتهم هنرى بأنه مصاب بجنون حب الذات والحكم المطلق . ولام الأساقفة الإنجليز على تسليمهم بعبودية الكنيسة للدولة . وندد بالزواج من آن باعتباره زنا ، وتنبأ (ولم يكن هذا من الحكمة إلى حد كبير) بأن النبلاء الإنجليز سوف يعدون الزابث « ابنة سفاح لعاهرة إلى الأبد(٧٤) ، وطالب شارل الخامس بألا يضيع أى ذخيرة حربية فى حرب الأتراك وأن يحول القوات الإمبراطورية للقتال ضد ملك إنجلترا الكافر . كانت رسالة طعن شديدة ، أتلفتها كبرياء الشباب فى الفصاحة . وأشار الكاردينال كونتارينى على المؤلف بألا ينشر الرسالة ، بيـــد أن بول أصر ، وأرسل نسخة إلى إنجلترا .

وعندما نصب بولس الثالث بول كاردينالا اعتبر هنرى هذا عملا من أعمال الحرب . وتخلى الملك عن كل فكرة تدور حول المصالحة ، واتفق مع كرومويل على أن الأديار فى إنجلترا يجب أن تحل ، وأن تضم أملاكها إلى التاج .